خطبة بعنوان: دور المرأة والأم في بناء المجتمع

18 جمادى الآخرة 1438هـ – 17 مارس 2017م

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: مكانة المرأة بين إهانة الجاهلية وتكريم الإسلام

العنصر الثاني: بر الأم بين الماضي والحاضر

العنصر الثالث: دور الأم في بناء المجتمع

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: مكانة المرأة بين إهانة الجاهلية وتكريم الإسلام

عباد الله: إننا لو نظرنا إلى مكانة المرأة عند الأمم السابقة قبل عصر الإسلام لوجدنا أنه لم تمر حضارة من الحضارات الغابرة ، إلا وسقت المرأة ألوان العذاب ، وأصناف الظلم والقهر. وسأقف سريعا مع نظرة هذه الحضارات للمرأة.

فعند الإغريقيين قالوا عنها : شجرة مسمومة ، وقالوا هي رجس من عمل الشيطان ، وتباع كأي سلعة متاع.

وعند الرومان قالوا عنها : ليس لها روح ، وكان من صور عذابها أن يصب عليها الزيت الحار ، وتسحب بالخيول حتى الموت.

وعند الصينيين قالوا عنها : مياه مؤلمة تغسل السعادة ، وللصيني الحق أن يدفن زوجته حية ، وإذا مات حُق لأهله أن يرثوه فيها.

وعند الهنود قالوا عنها : ليس الموت ، والجحيم ، والسم ، والأفاعي ، والنار ، أسوأ من المرأة ، بل وليس للمرأة الحق عند الهنود أن تعيش بعد ممات زوجها ، بل يجب أن تحرق معه.

وعند الفرس : أباحوا الزواج من المحرمات دون استثناء ، ويجوز للفارسي أن يحكم على زوجته بالموت.

وعند اليهود : قالوا عنها : لعنة لأنها سبب الغواية ، ونجسة في حال حيضها ، ويجوز لأبيها بيعها.

وعند النصارى : قالوا عنها: أنها خلقت لخدمة الرجل فحسب.

وعند العرب قبل الإسلام : تبغض بغض الموت، بل يؤدي الحال إلى وأدها، أي دفنها حية أو قذفها في بئر بصورة تذيب القلوب الميتة.

ولم يكن للمرأة حق الإرث، وكانوا يقولون في ذلك: لا يرثنا إلا من يحمل السيف؛ ولم يكن للزوجة صداق ولا مهر عند بعض القبائل في الجاهلية؛ بل كان يشتري الزوج زوجته إذا دفع ثمنها لأبيها كما تشترى البهيمة!! وكان العرب في الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنا، ويأخذون أجورهم ؛ ولم يكن للمرأة على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، وليس لتعدد الزوجات عدد معين، وكانوا إذا مات الرجل، وله زوجة وأولاد من غيرها، كان الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، فهو يعتبرها إرثًا كبقية أموال أبيه!.

فجاء الإسلام فرفض ذلك وأبطله وفرض لها حقوقها ونظم وضعها في الطلاق والزواج والعدة بطريقة تحفظ كرامتها وعفتها وطهارتها !!

وسأطوف سريعا مع حضراتكم حول مظاهر تكريم الإسلام للمرأة في جميع مراحلها العمرية منذ ولادتها طفلة حتى شيخوختها.

فالمسلمة في طفولتها لها حق الرضاع، والرعاية، وإحسان التربية، وهي في ذلك الوقت قرة العين، وثمرة الفؤاد لوالديها وإخوانها.

وإذا كبرت فهي معززة مكرمة؛ يغار عليها وليها، ويحوطها برعايته، فلا يرضى أن تمتد إليها أيد بسوء، ولا ألسنة بأذى، ولا أعين بخيانة.

وإذا تزوجت كان ذلك بكلمة الله، وميثاقه الغليظ؛ فتكون في بيت الزوج بأعز جوار، وأمنع ذمار، وواجب على زوجها إكرامها، والإحسان إليها، وكف الأذى عنها. وإذا كانت أماً كان برُّها مقروناً بحق الله–تعالى–وعقوقها والإساءة إليها مقروناً بالشرك بالله، والفساد في الأرض. وإذا كانت أختاً فهي التي أُمر المسلم بصلتها، وإكرامها، والغيرة عليها. وإذا كانت خالة كانت بمنزلة الأم في البر والصلة.

وإذا كانت جدة، أو كبيرة في السن زادت قيمتها لدى أولادها، وأحفادها، وجميع أقاربها؛ فلا يكاد يرد لها طلب، ولا يُسَفَّه لها رأي.

وإذا كانت بعيدة عن الإنسان لا يدنيها قرابة أو جوار كان له حق الإسلام العام من كف الأذى، وغض البصر ونحو ذلك.
وكل مرحلة من المراحل السابقة في التكريم والعناية لها أدلتها من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة – مما لا يتسع المقام لذكرها – وأنت بذلك خبير. فهل هناك ديانة أو مجتمعات على وجه الأرض نالت فيه المرأة مثل هذا التكريم ؟!!!
وقد لخص أحدهم فضل المرأة ومكانتها في جميع مراحل عمرها السابقة بقوله: ما رأيت كالأنثى فضلاً .. تُدخِلُ أباها الجنةَ طفلة .. وتُكملُ نصف دين زوجها شابة .. والجنةُ تحت قدميها أُمّاً ..!! وما أجمل قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في المقارنة بين وضع المرأة في الجاهلية والإسلام :" وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ". (البخاري)
لذلك من رزق بهن كن سترا له من النار وسبيلا له إلى الجنة؛ وفي ذلك يقول النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ" (متفق عليه).
وما أجمل قول الإمام الشافعي رحمه الله : " البنون نعم، والبنات حسنات، والله عز وجل يحاسب على النِعم، ويجازي على الحسنات "
لذلك كانوا يقدمون التهنئة لمن رزق ببنت؛ فقد كتب أحد الأدباء رسالة إلى صديق له يهنئه بالبنت يقول :" أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ؛ والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون."

فلو كـــان النساء كمن ذكـــرن..... لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ .....وما التذكير فخر للهلال

عباد الله: وإذا كان الإسلام قد رفع مكانة المرأة عموماً؛ فإنه قد رفع مكانة الأم خاصة لدورها البارز في بناء المجتمع؛ لذلك أكد النبي صلى الله عليه وسلم على حسن صحبة الأم ثلاث مرات والأب مرة واحدة ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ''جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ'' (متفق عليه)
يقول ابن بطال – رحمه الله – '' في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاث أمثال محبة الأب، لأن عليه السلام كرر الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في المرة الرابعة فقط، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم".

العنصر الثاني: بر الأم بين الماضي والحاضر

أيها المسلمون: إذا كانت الأمة تحتفل بعيد الأم واليوم المخصص لها؛ فإننا نقف في هذه اللحظات لنعرض صوراً لبر الأم عند سلفنا الصالح مقارنة بصور البر للأمهات في واقعنا المعاصر .
فقد أمرنا الشارع الحكيم ببر الوالدين عموما والأم خصوصاً لأنها هي مصدر الحنان والرعاية والعطاء بلا حدود؛ قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } [الإسراء: 23-24]. وقال: { أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } (لقمان: 14) . فانظر رحمك الله كيف قرن شكرهما بشكره. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها أي إحداهما. قول الله تعالى: " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه. الثانية قول الله تعالى: " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه. الثالثة قول الله تعالى: " أن اشكر لي ولوالديك " فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه. ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " رضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين " .(البزار والبيهقي بسند حسن)

ولفضل الأم جعل الإسلام برها جهاداً في سبيل الله وطريقاً إلى الجنة؛ فقد جاء رجل إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها».(أحمد والنسائي).

ومن عجيب ما جاء به الإسلام أنه أمر ببر الأم، حتى وإن كانت مشركة، فقد سألت أسماء بنت أبي بكر النبي "صلى الله عليه وسلم" عن صلة أمها المشركة، وكانت قدمت عليها، فقال لها: «نعم، صلي أمك».(متفق عليه)

أيها المسلمون: وإذا كان الإسلام أعلى من شأن الأم وأعطى لها هذه المكانة العليا فحري بنا أن نقوم ببرها وودها ورعايتها كما كان يفعل سلفنا الصالح وشواهد ذلك عديدة وكثيرة.

فقد رأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يطوف بالكعبة حاملا أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أترى أني جزيتها ؟ قال : لا! ولا بطلقة واحدة ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيرا .

وروى عن رجل من التابعين يقال له حيوة بن شريح إمامٌ محدثٌ وراويةٌ فقيهٌ كان يجلس في درسه مئات من طلبة العلم ينقلون عنه علم رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلَّم وحديثه، وبينما هو يلقي الدرس وفي الدرس مئاتُ طلبة العلم تفتح أمه الباب عليه وتقول له: يا حيوة قم وألقِ الشعير إلى الدجاج؛ فيقوم حيوة بن شريح القاضي إلى مكان الدجاج فيعلفه ثم يعود إلى درسه ولا يتأفف عن أمه.

وكان علي بن الحسن: لا يأكل مع والديه فقيل له في ذلك؟! فقال: لأنه ربما يكون بين يدي لقمة أطيب مما يكون بين أيديهما وهما يتمنيان ذلك ، فإذا أكلت بخست بحقهما!!

ولشدة برهم بأمهم كانوا يؤثرونها بحسناتهم. "قال ابن المبارك : لو كنت مغتابا لاغتبت أمي فإنها أحق بحسناتي".(فيض القدير للمناوي)

وهذا أبو هريرة كانت أمّه في بيت وهو في آخر، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها فقال: السّلام عليك يا أمّاه ورحمة الله وبركاته. فتقول: وعليك يا بنيّ ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربّيتني صغيرا. فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيرا. (الأدب المفرد للبخاري)

وعن محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى أنه قال: "بِتُّ أَغْمِزُ رِجْلَ أُمِّي، وَأخي عُمَرُ يُصَلِّي الليلُ ، وَمَا أُحِبُّ أنَّ لَيْلَتِي بِلَيْلَتِهِ" ؛ أغمز: أي أدلكها لمرض أصابها. أي واحد يبر أمه والآخر بطاعة ربه فكان يرى أن بر أمه أعظم من طاعة ربه!!

لذلك قال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-:" إنّي لا أعلم عملا أقرب إلى الله- عزّ وجلّ- من برّ الوالدة" (الأدب المفرد للبخاري).

وعن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت : من هذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذلكم البر كذلكم البر »(الحاكم وصححه) وكان حارثة أبرّ النّاس بأمّه.

وقال حميد: لما ماتت أم أياس بن معاوية: بكى ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة ، وأُغلق أحدهما.

وأختم صور بر الأم عند سلفنا الصالح بهذه القصة الجميلة التي تنبأ بها النبي صلى الله عليه وسلم للتابعي الجليل أويس بن عامر الذي أصبح مجاب الدعوة من كثرة بره لأمه.

فعنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ : أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ لَكَ وَالِدَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ . فَاسْتَغْفِرْ لِي . فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ."(مسلم). قال القاضي عياض:" وقول النبى – عليه الصلاة والسلام – فيه: " له والدة، هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره ": إشارة إلى إجابة دعوته وعظيم مكانته عند ربه، وأنه لا يخيب أمله فيه، ولا يكذب ظنه به، ولا يرد دعوته ورغبته وعزيمته وقسمه فى سؤاله بصدق توكله عليه وتفويضه إليه، وقيل: معنى " أقسم على الله ": وعى،

و" أبره " أجابه، وفيه فضل بر الوالدين، وعظيم أجر البر بهما." أ.هـ. وقال النووي: " هذه منقبة ظاهرة لأويس رضي الله عنه . وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح ، وإن كان الطالب أفضل منهم ."

هكذا علمنا السلف الصالح رضي الله عنهم بحياتهم العملية كيف نبر أمهاتنا وكيف نعظم قدرها وهي الأم التي صنعت الرجال؟!!

عباد الله: اعلموا أن الجزاء من جنس العمل في البر والعقوق؛ فمن بر أمه بره أبناؤه؛ ومن عق أمه عقه أبناؤه؛ فكما تدين تدان. وإليكم هذه القصة: روى أن العوام بن حوشب قال : نزلت مرة حيا وإلى جانب ذلك الحي مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس حمار وجسده جسد إنسان فنهق ثلاث نهقات ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا فقالت امرأة : تري تلك العجوز ؟ قلت : ما لها ؟ قالت تلك أم هذا ، قلت وما كان قضيته ؟ قالت كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يا بني اتق الله إلى متى تشرب هذا الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ؛ قالت فمات بعد العصر ، قالت فهو يشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر " .(الأصبهاني وحسن القصة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

وهناك قصة مشهورة على ألسنة الخطباء والوعاظ وهي قصة علقمة الذي عجز لسانه عن نطق كلمة التوحيد عند الاحتضار لأنه كان يعقه أمه؛ فدعى الرسول أمه وأمرها أن ترضى عنه أو يحرق بالنار فرضيت فأطلق لسانه!! هذه القصة لم تثبت فانتبه!!

أحبتي في الله: تعالوا بنا لنقف ونطوف سريعاً مع واقعنا المعاصر وما يحدث فيه من عقوق وموت الضمائر والقلوب.

هذه قصة واقعية يرويها أحدهم قائلاً: كنت على شاطئ البحر فرأيت امرأة كبيرة في السن جالسة على ذلك الشاطئ تجاوزت الساعة الثانية عشرة مساءً ؛ فقربت منها مع أسرتي ونزلت من سيارتي ... أتيت عند هذه المرأة ، فقلت لها : يا والدة من تنتظرين ؟!

قالت : انتظر ابني ذهب وسيأتي بعد قليل ... يقول الراوي : شككت في أمر هذه المرأة .. وأصابني ريب في بقائها في هذا المكان !! الوقت متأخر ولا أظن أن أحد سيأتي بعد هذا الوقت !!...يقول : انتظرت ساعة كاملة ولم يأت أحد ... فأتيت لها مرة أخرى فقالت : يا ولدي .. ولدي ذهب وسيأتي الآن!! يقول : فنظرت فإذا بورقه بجانب هذه المرأة . فقلت : لو سمحت أريد أن اقرأ هذه الورقة . قالت : إن هذه الورقة وضعها ابني وقال : أي واحد يأتي فأعطه هذه الورقة. يقول الراوي : قرأت هذه الورقة ... فماذا مكتوب فيها ؟ مكتوب فيها : (إلى من يجد هذه المرأة الرجاء أن يأخذها إلى دار العجزة والمسنين). عجباً لحال هؤلاء !!

قصة أخرى: رجل أصابه الكبر الشديد وتجاوز التسعين من العمر؛ فأصبح في بعض الأحيان يفقد وعيه ويفقد الذاكرة حتى يصبح كالمجنون تذهب الذاكرة وتعود .. لقد قام بتزويج أبنائه الثلاثة وأسكنهم في نفس البيت؛ ولكن كانت زوجات أبنائه قد تضايقوا من وجود هذا الأب ..فوضع البنات خطة لطرد هذا الأب وأقنعن الأزواج بالذهاب به إلى دار العجزة والمسنين؛ وفعلاً استجاب هؤلاء الأبناء – عليهم من الله ما يستحقون – وذهبوا بوالدهم إلى دار العجزة والمسنين؛ وقالوا للمسئولين: إن هذا الرجل وجدناه في الطريق ونريد أن نكسب الأجر فوضعناه عندكم في دار العجزة. رحبت دار العجزة بهذا الأمر على أنه فعلا رجل في الطريق ليس له أحد إلا هؤلاء جاءوا به إلى هذا المكان . قالوا للبواب المسئول : إذا مات هذا الرجل فهذا رقم البيت ورقم الجوال فاتصل علينا. ما هي إلا لحظات وتعود الذاكرة إلى هذا الأب وينادي أبناءه يا فلان يا فلان أحضروا لي ماءً أريد أن أتوضأ !! جاء المسئول والممرضون عند هذا الأب الكبير قالوا : أنت في دار العجزة. قال : متى أتيت إلى هنا ؟! قالوا : أتيت في يوم كذا وكذا وذكروا أوصاف الأبناء الذين جاءوا به . قال هؤلاء أبنائي ورفع يديه ودعا عليهم.. اللهم كما فعلو بي هذا الفعل اللهم فأربي وجوههم تلتهب ناراً يوم القيامة؛ اللهم أحرمهم من الجنة يا رب العالمين!! وينادي المدير المسئول ويكتب جميع عقاراته وأملاكه وقفاً لهذه الدار؛ ولم يتحمل هذه الصدمة وتوفي مباشره .

فرح الأبناء بعدما اتصل عليهم هذا البواب وأعطوه مبلغاً من المال؛ فجاءوا فرحين؛ ولكن تفاجؤوا إذ برجال الأمن يوقفونهم عند المحكمة ليخبروهم أن هذه الأملاك كلها أصبحت ملكاً لدار العجزة؛ ويجب عليهم أن يخرجوا من هذه الشقق التي كانوا يسكنون فيها؛ هذا في الدنيا فضلا عن العقاب المعد لهم في الآخرة !!

قصة ثالثة: امرأة عجوز ذهب بها ابنها إلى الوادي عند الذئاب يريد الانتقام منها ، وتسمع المرأة أصوات الذئاب ، فلما رجع الابن ندم على فعلته فرجع وتنكر في هيئته حتى لا تعرفه أمه .. فغير صوته وغير هيئته ...فاقترب منها. قالت له يا أخ : لو سمحت هناك ولدي ذهب من هذا الطريق انتبه عليه لا تأكله الذئاب!!..يا سبحان الله!! ... يريد أن يقتلها وهي ترحمه خوفاً عليه من الذئاب!!

أيها المسلمون: لا تظنون هذه القصص من الخيال؛ والله في البيوت أعظم من ذلك ، واسألوا المحاكم وزوروا المستشفيات ودور المسنين ترون العجب العجاب !!

والله إن كثرة العقوق في المجتمع دليل وبرهان وعلامة على قرب قيام الساعة كما جاء في حديث جبريل عليه السلام في قوله:" فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ؟ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ!! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا". (البخاري ومسلم).قال الحافظ ابن حجر في معنى تلد الأمة ربتها:" أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام ؛ فأطلق عليه ربها مجازا لذلك . أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة ، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه ؛ ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة . ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربى مربيا والسافل عاليا ، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى أن تصير الحفاة ملوك الأرض ."(فتح الباري)

العنصر الثالث: دور الأم في بناء المجتمع

عباد الله: إن للأم دوراً كبيراً في بناء المجتمع؛ لأنها تمثل نصف الأمة؛ فإذا كان الإسلام رفع من شأنها ومكانتها وكرمها أيما تكريم؛ وعني بها كل هذه العناية، وقرر لها كل هذه الحقوق، واجب عليها أن تحسن تربية أبنائها، فتغرس فيهم الفضائل، وتبغضهم في الرذائل، وتدفعهم دفعا إلى الجد والاجتهاد والعمل من أجل بناء المجتمع؛ وتعودهم على طاعة الله، وتشجعهم على نصرة الحق، ولا تثبطهم عن الجهاد، استجابةً لعاطفة الأمومة في صدرها، بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة.

ولقد ضربت لنا الأمهات الخالدات أروع الأمثلة في التربية والتعليم وبناء المجتمع؛ فلقد رأينا أمًا مؤمنة كالخنساء في معركة القادسية تحرض أبناءها الأربعة، وتوصيهم بالإقدام والثبات في كلمات بليغة رائعة، وما إن انتهت المعركة حتى نعوا إليها جميعًا، فما ولولت ولا صاحت، بل قالت في رضا ويقين: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيله!!

وهذه أم سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث لما مات أبوه انقطع عن طلب العلم فترك حلقة شيخه في رواية الحديث النبوي الشريف فقالت له أمه: لم فعلت ذلك؟! قال: أريد أن أعمل وأنفق على البيت!! فقالت له أمه: عد إلى طلب العلم والزم حلقة شيخك وأنا أكفيك بمغزلي!! فكانت الأم تغزل الصوف وتبيعه في السوق وتنفق على ولدها سفيان حتى صار أمير المؤمنين في الحديث!!

كما كان للمرأة دور هام في الدفاع عن وطنها، وأرضها، وشعبها، كما طلب ذلك من الرجل، وقد أقرّ النبى، صلى الله عليه وسلم، مشاركة النساء فى الجهاد والغزوات، بل غزت المرأة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كأم سليم بن ملحان، وأم حرام بنت ملحان، وأم الحارث الأنصارية، والرُّبَيِّع بنت معوذ، وأم سنان الأسلمية، وأم سليط، وليلى الغفارية، وكعيبة بنت سعيد الأسلمية، وحمنة بنت جحش، ورفيدة الأنصارية، وأم زياد الأشجعية وغيرهن كثيرات.

أما ميدان العلم فنبغ فى مختلف مراحل التاريخ الإسلامي الآلاف من العالمات المتفوقات فى أنواع العلوم وفروع المعرفة وحقول الثقافة العربية والإسلامية، وقد ترجم ابن حجر فى كتابه «الإصابة»، لثلاث وأربعين وخمسمائة وألف امرأة، منهن الفقيهات والمحدثات والأديبات.

ولقد تفوقت المرأة المسلمة على الرجل فى جوانب كثيرة فى علوم الحضارة الإسلامية، خاصة فى جانب علم الحديث ومعرفة رواته، ويسجل تلك الشهادة أئمة علم الحديث والمصطلح، فيقول الإمام الذهبى: «وما علمت فى النساء من اتهمت ولا من تركوها». «ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للإمام الذهبى».

وقد ضربت لنا عائشة رضي الله عنها أروع المثل في إقبال المرأة المسلمة على التعلم فقد كانت رضي الله عنها تمتاز بعلمها الغزير الواسع في مختلف نواحي العلوم كالحديث، والطب، والشعر، والفقه والفرائض .

والأمثلة على دور المرأة في بناء المجتمع في العهد السابق كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

أيها المسلمون: إن المرأة نصف الأمة، بل هي بمنزلة القلب منها، فإذا صلحت صلحت الأمة، وإذا فسدت فسدت الأمة، وقد أدرك هذا العلماء فقالوا: إنك إن علمت فتاةً علمت أسرةً؛ ويكفى أنها تحمل مسؤولية كبيرة في تربية شباب المستقبل ، ورجالات الأمة ، فهي المحضن الخصب الذي يخرج منه إلى الحياة أولئك الأبطال ، والذي لولاها بعد الله لخرجن نماذج كرتونية ضعيفة هزيلة .

يقول الكاتب التركي عزيز نيسين حول المرأة: "كلما قدّمتم للمرأة شيئاً تعيده إليكم مضاعفاً بمراتٍ عديدة...

إن قدّمتم لها نطفةً تعيدها إليكم طفلاً ؛ وإن قدّمتم لها بيتاً تعيده إليكم عشّاً دافئاً ؛ وإن قدّمتم لها خضاراً تعيدها إليكم طعاماً شهياً ؛ وإن قدّمتم لها ابتسامةً تقدّم لكم قلباً ؛ دائماً تعيد ما تقدّمونه لها مضاعفاً وكبيراً.. لهذا السبب إن رميتموها بحفنة طينٍ عليكم أن تكونوا مستعدين للغرق في مستنقع ستعدّه لكم ".

أحبتي في الله: إن للأم دورًا كبيرًا في رعاية الأولاد – منذ ولادتهم – وفي تشكيل أخلاقهم وسلوكهم، وما أجمل عبارة : " إن وراء كل رجل عظيم امرأة أعظم"، وكما قيل : "الرجال لا يولدون بل يُصنعون". وكما قال الشاعر:

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ مِنا ..... على ما كان عَوَّدَهُ أبُوه

فيجب على الأم أن تربي أبناءها على الأخلاق والقيم؛ والعلم والعمل؛ لأن الولد ذكراً كان أو أنثي يتطبع بطباع الأم وأخلاقها؛ فتغرس فيه الخير وتنزع منه كل شهر؛ وصدق الشاعر اللبناني (أحمد تقي الدين) حيث يقول:

والأُم أَولى الوالـدَيْن بولْـدِها.....تَسقيه من دم قلبها الخفّاق

الأم مدرسةُ البــنينَ وحسبُهم.....أن يغتدوا من ثديها المهراق

هي تُرضعُ الأجسامَ والأرواحَ ما.....في صدرها من صحة وخَلاق

فإذا هي انحّطتْ فنشءٌ خــاملٌ..... وإذا ارتقتْ بشّرْ بنشءٍ راقي

الطفلُ مثلُ الشمعِ لَدْنٌ فاْطبعي.....يا أُمُّ فيه محاسنَ الأّخلاق

أما إهمال تربية الأبناء فجريمة يترتب عليها أَوْخَم العواقب على حد قول الشاعر:

إهمالُ تربية البنين جريمةٌ .....عادت على الآباء بالنكبات

وأختم اللقاء بقصة في الإهمال من جانب الأم: سرق رجل مالاً كثيرًا، وقُدّم للحد فطلب أمه، ولما جاءت دعاها ليقبلها، ثم عضها عضة شديدة، فقيل له ما حملك على ذلك؟ قال: سرقت بيضة وأنا صغير، فشجعتني وأقرتني على الجريمة حتى أفضت بي إلى ما أنا عليه الآن!!

أيها المسلمون: وهكذا تظهر أهمية المرأة كزوجة وأم ومربية أجيال؛ فعليها أن تغرس في أولادها منهج نبينا – صلى الله عليه وسلم- في جميع شئون الحياة، وذلك بتعليمهم آداب الصلاة والصوم والاستئذان ودخول البت وخروجه، وآداب الطعام والشراب، واحترام الكبير وتوقيره؛ وتحمل مصاعب الحياة؛ والجد والعمل من أجل بناء الأسرة والوطن؛ وغير ذلك من الآداب التي حثتا عليها الشارع الحكيم.

الدعاء..... وأقم الصلاة،،،

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي